حياة أعظم الرسل

مُحَمَّدٌ أَعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ

مُحَمَّدٌ أَعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ

كَانَ الْمُصْطَفَى ﷺ أَعْظَمَ مُصْلِحٍ اجْتِمَاعِيٍّ ؛ فَمَبَادِئُ الْإِصْلَاحِ الَّتِي نَادَى بِهَا لَمْ تُنَفَّذْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ وَحْدَهَا ، وَلَكِنَّهَا نُفِّذَتْ فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْعَالَمِ ، الَّتِي انْتَشَرَ فِيهَا الْإِسْلَامُ .

الْقَضَاءُ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ :

كَانَ بِالْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا يَعْبُدُهَا الْعَرَبُ ، وَيُقَدِّمُونَ لَهَا الْهَدَايَا ،

فَقَضَى عَلَى عِبَادَتِهَا ، وَأَزَالَ الأَصْنَامَ مِنهَا ، وَجَعَلَ النَّاسَ يؤمِنُونَ بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَيَعبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَكَوَّنَ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ فِى مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ . وَدَافَعَ عَنِ الْحُرِّيَّةِ الدِّينيَّةِ بِإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَسِيَاسَةٍ حَكِيمَةٍ ، وَصَبرٍ لَا مَثِيلَ لَهُ . وَاحتَمَلَ كَثِيرًا مِنَ الْأَذَى وَالْعَذَابِ فِى سَبِيلِ نَشْرِ الْإِسلَامِ .

نَشْرُ العَدَالَةِ وَالمُسَاوَاةِ :

كَانَ الْقَوِىُّ يَتَحَكَّمُ فِى الضَّعِيفِ ،

وَالْغَنِىُّ يُسَيطِرُ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَالسَّيِّدُ يَقسُو عَلَى الْعَبدِ ، فَنَشَرَ الْحُرِّيَّةَ وَالْعَدَالَةَ وَالْمُسَاوَاةَ ، وَتَخَلَّصَ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّفرِقَةِ فِى الْمُعَامَلَةِ .

وَتَظهَرُ عَظَمَتُهُ ﷺ فى وُقُوفِهِ بِجَانِبِ الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ ، وَدِفَاعِهِ عَنِ الْوَطَنِ وَالشَّرَفِ ، وَعَطْفِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحتَاجِينَ وَالضُّعَفَاءِ ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحمَتِهِ بِأَعدَائِهِ الَّذِينَ آذَوْهُ بِكُلِّ أَنواعِ الْإِيذَاءِ ، وَمُطالَبَتِهِ بِتَحرِيرِ العَبِيدِ ، وَإِعطَائِهِم حَقَّهُم فِى الْحُرِّيَّةِ وَفَرضِ حَقٍّ مَعلُومٍ مِن أَموالِ

الْأَغنِيَاءِ ، لِلْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ .

القَضَاءُ عَلَى الْجَهلِ وَنَشْرُ العِلْمِ :

كَانَ الْجَهْلُ مُنتَشِرًا بينَ الْعَرَبِ ، فَحَارَبَهُ الإسلَامُ ، وَجَعَلَ التَّعلِيمَ وَاجِبًا .

وَقَد دَعَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ إِلَى التَّعلِيمِ وَأَوْجَبَهُ ، فَقَالَ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ وَمُسلِمَةٍ » . وَقَالَ : « مَن أَرَادَ الدُّنيَا فَعَلَيهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَن أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيهِ بِالْعِلْمِ » .

وَقَالَ الرَّسُولُ : « عَلِّمُوا أَولَادَكُمْ ،

فَإِنَّهُم مَخلوُقُون لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ » .

إِنصَافُ المَرْأَةِ :

كَانَ الْعَرَبُ قبلَ الْإِسلَامِ يَقتُلُونَ البَنَاتِ خَوْفًا مِنَ الْعَارِ ، وَيَدفِنُونَهُنَّ فِى التُّرابِ وَهُنَّ عَلَى قَيدِ الْحَيَاةِ ، مِن غيرِ ذَنبٍ ارتَكَبْنَهُ . فَحَـرَّمَ الْإِسلَامُ ارتِكَـابَ هٰـذِهِ الْجَرِيمَةِ الْقَبِيحَةِ فِى قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ(١) سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ . وَكَانُوا يَقتُلونَ أولَادَهُم خَوْفًا مِنَ الْفَقرِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنهُم يَقتُلُ وَلَدَهُ خَوْفًا مِن أَن يَأكُلَ مَعَهُ إِلَى أَن

---

(١) الطِفلةُ الَّتِى كَانَ يَدفِنُها وَالِدُهَا فِى التُّرابِ وَهِىَ حَيَّةٌ .

نَهى اللهُ تعالَى عَن ذلِك بِقولِهِ : ﴿ وَلا تقتُلُوا أَوْلادكُم خَشْيَةَ(١) إمْلاقٍ(٢) ، نَحنُ نرزُقُهُم وَإيَّاكُمْ ، إنَّ قَتْلَهُم كَانَ خِطئاً(٣) كَبيرًا ﴾ .

وَبَعدَ أَن أَصَابَ الْمَرأةَ مَا أَصابَها مِنَ الظُّلْمِ وَالاِستِعبَادِ جَاءَ الْإسلَامُ ، وَعَامَلَهَا مُعَامَلَةً كُلُّهَا عَدَالَةٌ ، وَأَزَالَ عَنهَا مَا أَصَابَهَا مِن ظُلْمٍ ، وَأَعطاهَا حُقُوقَهَا كَامِلَةً ، وَدَافَعَ عَن حَيَاتِهَا وَحُرِّيَّتِهَا وَكَرَامَتِهَا . وَعُومِلَت مُعَامَلَةً إنسانِيَّةً ، كَمَا يُعَامَلُ الإنسَانُ الْحُرُّ الكَرِيمُ .

---

(١) خوفًا من . (٢) فقر . (٣) إثمًا وذنبًا .

فَالإِسلَامُ أَنقَذَ الْمَرْأَةَ مِن كُلِّ الْمَظَالِمِ . وَلَم تُعْطَ الْمَرْأَةُ حَقَّهَا إِلَّا فِي الْإِسلَامِ . فَأُعطِيَت الْحَقَّ فِي الْحَيَاةِ ، وَالْمِيرَاثِ ، وَالتَّمَلُّكِ ، وَالتَّعَلُّمِ مُنذُ أَربَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا تَقرِيبًا . وَقَد وَقَفَ الرَّسُولُ بِجَانِبِ الْمَرْأَةِ ، وَدَافَعَ عَنهَا ، فَأَيَّدَتِ الْمَرْأَةُ الدَّعوةَ إِلَى الْإِسلَامِ بِكُلِّ مَا فِي وُسْعِهَا ، وَاشتَرَكَتْ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْحَرْبِ بِسَيْفِهَا ، وَشَجَّعَتِ الْمُحَارِبِينَ ، وَعَالَجَت الْجَرْحَى ، وَرَبَطَت جِرَاحَهُم ، وَوَاسَت الْمَرْضَى ، وَقَدَّمَتْ لَهُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ .

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ . فَقَالَ :

« يَا رَسُولَ اللهِ مَن أَحَقُّ النَّاسِ بِصَحَابَتِى (صُحْبَتِى) .

قَالَ : (أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَن ؟

قَالَ : أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَن ؟

قَالَ : أُمُّكَ .

قَالَ : ثُمَّ مَن ؟

قَالَ : أَبُوكَ .

فَلِلْأُمِّ مَنزِلَةٌ كَبِيرَةٌ فى الْإِسْلَامِ ، وَهِىَ

مُفَضَّلَةٌ عَلَى الْأَبِ .

العَطفُ عَلَى اليَتَامَى وَالتَّفكِيرُ فِيهِم :

كَانَ الْيَتِيمُ (مَن مَاتَ أَبُوهُ) يُعَامَلُ مُعَامَلَةً قَاسِيَةً ، وَلَا يأْخُذُ مِنَ المَالِ الَّذِى تَرَكَهُ لَهُ أَبُوهُ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ . وَكَانَ الْوَصِىُّ عَلَى الْيَتِيمِ يَأْكُلُ مَالَهُ ، وَلَا يَخَافُ اللهَ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَترُكُهُ بِغَيرِ تَعلِيمٍ ، وَيُبَدِّدُ أَموَالَهُ . فَأَنزَلَ اللهُ عَلَى الرَّسُولِ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمُعَامَلَةِ اليَتِيمِ مُعَامَلَةً إِنسَانِيَّةً .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ،

وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا (ذَنْبًا) كَبِيرًا ﴾ أى وَأَعْطُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُم كَامِلَةً عِندَ بُلُوغِهِمْ سِنَّ الرُّشْدِ(١) . وَلَا تَأْخُذُوا الطَّيِّبَ مِن أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَأَرْضِهِم ، وَتَضَعُوا مَكَانَهُ الرَّدِيءَ مِن أَمْوَالِكُم وَأَرْضِكُم . وَلَا تَأْخُذُوا أَمْوَالَهُم لِتَضُمُّوهَا إِلَى أَمْوَالِكُم . إِنَّ أَخذَهَا كَانَ ذَنبًا كَبِيرًا ، وَإِثْمًا(٢) عَظِيمًا .

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ

---

(١) سِنُّ الرُّشْدِ : إحدَى وَعِشرونَ سَنَةً .   (٢) ذَنْبًا .

تَرَكُوا مِن خَلفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم، فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّما يَأْكُلونَ فِي بُطُونِهِم نَارًا، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وَالْمَعْنَى : يَجِبُ عَلَى الْأَوْصِيَاءِ أن يُقَدِّرُوا أَنَّهُم هُم الَّذِينَ مَاتُوا، وَأَنَّ هـؤُلَاءِ الْيَتَامَى الَّذِينَ تَحتَ وِصَايَتِهِم هُم أَبناؤُهُم، وَتَحتَ وِصَايَةِ غيرِهِم، فَيُعَامِلُوهُم بِالشَّفَقَةِ وَالرَّحمَةِ الَّتِي يُحِبُّونَهَا لِأَولَادِهِم، وَلْيَقُولُوا لَهُم فِي مُحَادَثَتِهِم وَتَربِيَتِهِم قَولًا فِيه جَبْرٌ

لِخَاطِرِهِم ، وَيَستَقبِلُوهُم بِحُسنِ التَّرحِيبِ ، حَتَّى يُخَفِّفُوا عَنهُم مُصِيبَةَ فَقْدِ آبَائِهِم .

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا بِغَيْرِ حقٍّ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم نَارًا وَسَيَدخُلُونَ نَارًا شَدِيدَةً يَحتَرِقُونَ فِيهَا .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ . أَىْ وَلَا تَقرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِى هِيَ أَحسنُ مِنَ غَيرِهَا ، وَذلِكَ يَكُونُ بِحِفْظِهِ وَتَنْمِيَتِهِ ، حَتَّى يَبلُغَ الرُّشدَ ، وَيَصِلَ إِلَى تَمَامِ عَقلِهِ ،

وَحُسنِ تَصَرُّفِهِ .

وَصِيَّةُ الرَّسُولِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ :

أَوصَى الرَّسُولُ أُمَّتَهُ وَصِيَّةً أَوْصَاهُ اللهُ بِهَا. فَقَالَ : « أَوْصَانِى رَبِّى بِتِسْعٍ هِىَ : الْإِخلَاصُ فِى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْعَدْلُ فِى الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَالْقَصْدُ فِى الْغِنَى وَالْفَقرِ ، وَأَن أَعفُوَ عَمَّن ظَلَمَنِى ، وَأُعطِىَ مَن حَرَمَنِى ، وَأَصِلَ مَن قَطَعَنِى ، وَأَن يَكُونَ صَمتِى فِكرًا ، وَنُطقِى ذِكرًا ، وَنَظَرِى عِبَرًا » .

وَفى هـٰذِهِ الْوَصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ تَتَّضِحُ (تَظهَرُ) الْأَخلَاقُ الْإِسلَامِيَّةُ الكَرِيمَةُ ، فَقَد أَوصَى اللّٰهُ رَسُولَهُ الْمُصطَفى بِتِسْعِ صِفَاتٍ ، وَهِىَ :

« الإخلَاصُ فِى السِّرِّ وَالْجَهرِ ، فِى الْغِنَى وَالْفَقرِ . وَالْعَدَالَةُ فِى حَالَتِى الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، فِى الْقُربِ وَالْبُعدِ . وَالْقَصدُ وَالاعتِدَالُ ، وَالاقتِصَادُ وَالتَّوَسُّطُ فِى النَّفَقَةِ، فِى الْيُسرِ وَالْعُسْرِ . وَالْعَفوُ عَمَّن ظَلَمَكَ . وَإِعْطَاءُ مَن حَرَمَكَ . وَصِلَةُ مَن

قَطَعَكَ . والتَّفكِيرُ فِى خَالِقِ الْعَالَمِ وَقتَ صَمتِكَ . وَذِكرُ اللهِ عِندَ نُطقِكَ وَكَلَامِكَ . وَنَظَرُكَ فِيهِ عِظَاتٌ وعِبَرٌ لِغيرِكَ .